الفتن واقعة لا محالة

والفتن واقعة في أمة محمدٍ -صلى الله عليه وسلم- كونًا وقدرًا، ولا بد من أن يقع ما أخبر به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كما أخبر، ومِن ثَمَّ فلا بد من التبصر بها، والاستعداد لها، والحذر منها، بل يجب مضاعفة الحذر منها في عصرنا؛ لأننا صِرنا أقربَ إلى أشراط الساعة مما كان عليه المسلمون منذ أربعة عشر قرنًا.

عن المقداد بن الأسود -رضي الله عنه- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**إن السعيد لَمَن جُنِّبَ الفتن، ولَمَن ابتُلي فصبر**»(١).

وعن أمير المؤمنين معاوية -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: «**لم يبقَ من الدنيا إلا بلاءٌ وفتنة**»(٢).

وعن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة؛ قال: انتهيت إلى عبد الله بن عمرو بن العاص، وهو جالس في ظلِّ الكعبة، والناس مجتمعون عليه، فسمعته يقول: بينا نحن مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في سفر إذ نزل منزلًا، فمنا من يضرب خباءه، ومنا من ينتضل(٣)، ومنا من هو في جَشَرِه(٤)، إذ نادى مناديه: «الصلاة جامعةً»، فاجتمعنا، فقام

---

(١) رواه أبو داود (٤٢٦٣)، وقال الألباني في «الصحيحة» رقم (٩٧٥): «إسناده صحيح على شرط مسلم».

(٢) «صحيح ابن ماجه» (٢/ ٣٧٤) رقم (٣٢٦٠).

(٣) أي: يرتمون بالسهام.

(٤) الجَشَر: قوم يخرجون بدوابهم إلى المرعى، ويبيتون مكانَهم، ولا يأوون إلى البيوت، كما في «النهاية» (١/ ٢٧٣).

رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فخطبنا، فقال: «**إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته على ما يعلمه خيرًا لهم، وينذرهم ما يعلمه شرًّا لهم، وإن أمتكم هذه، جُعِلَتْ عافيتُها في أولها، وإن آخِرهم يصيبهم بلاء، وأمورٌ تنكرونها، ثم تجيء فتن يُرَقِّقُ بعضُها بعضًا، فيقول المؤمن: هذه مُهلِكَتي، ثم تنكشف، ثم تجيء فتنة، فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف، فمن سَرَّه أن يُزَحْزَحَ عن النار ويُدْخَلَ الجنة، فَلْتُدْرِكْهُ موتتُه وهو يؤمن باللهِ واليوم الآخر، وليأتِ إلى الناس الذي يحب أن يأتوا إليه، ومن بايع إمامًا فأعطاه صَفْقَةَ يمينه، وثمرةَ قلبه، فليُطعْه ما استطاع، فإن جاء آخرُ ينازعه، فاضربوا عنق الآخر**».

قال: فأدخلت رأسي من بين الناس، فقلت: أنشدك الله! أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: فأشار بيده إلى أذنيه، فقال: سمعتْه أذناي، ووعاه قلبي[(١)].

وعن أبي موسى -رضي الله عنه- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**أمتي أمة مرحومة، ليس عليها عذاب في الآخرة[(٢)]، عذابها في الدنيا[(٣)]: الفتن، والزلازل، والقتل**»[(٤)].

---

(١) «صحيح ابن ماجه» رقم (٣١٩٥)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» رقم (٢٠٥).

(٢) قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى-: «وهو محمول على معظم الأمة المحمدية؛ لثبوت أحاديث الشفاعة: أن قومًا يُعذبون ثم يخرجون من النار، ويدخلون الجنة». اهـ. من «بذل الماعون في فضل الطاعون» ص(١٢٧).

(٣) وفي «التاريخ الكبير» للبخاري (١/ ٣٨): «**إن أمتي أمة مرحومة، جُعل عذابها بأيديها في الدنيا**».

(٤) أخرجه أبو داود (٤/ ١٠٥) (٤٢٧٨)، والحاكم (٤/ ٤٤٤)، والإمام أحمد (٤/ ٤١٠، ٤١٨)، قال الحاكم: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي، وحسَّنه الحافظ=

وفي بعض طرقه: أن أبا بردة قال: بينما أنا واقف في إمارة زياد، إذ ضربت بإحدى يدي على الأخرى تعجبًا، فقال رجل من الأنصار -قد كانت لوالده صحبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم-: مما تعجب يا أبا بردة؟ قلت: أعجب من قوم دينهم واحد، ونبيهم واحد، ودعوتهم واحدة، وحجهم واحد، وغزوهم واحد، يستحل بعضُهم قتل بعض، قال: فلا تعجب، فإني سمعت والدي أخبرني أنه سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: «**أمتي أمة مرحومة**»[1] فذكر الحديث.

وقال الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى-: وأخرج أبو يعلى -أيضًا- بسند صحيح من رواية أبي مالك الأشجعي، عن أبي حازم، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: «إن هذه الأمة أمة مرحومة، لا عذاب عليها إلا ما عذبت به أنفسها، قلت: وكيف تعذب أنفسها؟ قال: أما كان يوم النهر عذاب؟! أما كان يوم الجمل عذاب؟! أما كان يوم صفين عذاب؟!»[2].

= ابن حجر في «بذل الماعون» ص(١٢٧)، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (٩٥٩)، وانظر: «عون المعبود» (١١/ ٣٥٨-٣٦٠).

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٥٣، ٣٥٤)، وقال: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي، قال الألباني: «هو كما قالا، لولا الرجل الأنصاري الذي لم يُسَمَّ» «الصحيحة» رقم (٩٥٩).

(٢) «بذل الماعون في فضل الطاعون» ص(١٢٧).

obeikandl.com

الحذر من الشر باب من أبواب الخير

إن التحذير من الشر باب من أبواب الخير، قال حذيفة -رضي الله عنه-: «كان الناس يسألون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني» الحديث[١].

فالدفع أسهل من الرفع، والتخلية مقدمة على التحلية، والوقاية خير من العلاج، وأحيانًا تكون العلاجَ الوحيد، والخبرة بالظلام تميزه عن النور، وتعصم من التورط فيه، فالضِّدُّ يُظِهر حُسْنَه الضدُّ، وبضدها تتميز الأشياء، قال أمير المؤمنين عمر -رضي الله عنه-: «يوشك أن يَهْدِمَ الإسلامَ حَجَرًا حَجَرًا مَن جهل عاداتِ الجاهلية».

عرفتُ الشرَّ لا للشرِّ لكنْ ... لتوقِّيه
ومن لا يعرف الشرَّ من الخير يقعْ فيه

قال الأستاذ محمد أحمد الراشد -حفظه الله تعالى-: «كان حذيفة -رضي الله عنه- لا يقنع أن يشارك إخوته من الصحابة -رضي الله عنهم- سؤالَهم رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- عن مكملات الخير الذي هم فيه، وما أن يشاركهم فرحهم بالخير حتى تلذع ابتسامةَ قلبِه تخوفاتٌ من احتمالات شَرٍّ مبهم يراه مُقبِلًا، يجهل صفته وعلامته، فيظل قلقًا وجلًا، حتى ينعته له رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويذكر له بوادره ومقدماته التي ستنبهه يومًا ما إلى الاحتياط ورفع صوته بأذان التحذير.

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه» (٩/ ٦٥).

كان يريد علمًا يكمِّل علم الخير، فصار يحرص على أن يخلو برسول الله -صلى الله عليه وسلم- يسأله.

يقول حذيفة -رضي الله عنه-: «كان الناس يسألون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن يدركني».

فأتقن علم الشر بهذا الحرص، وأحاط خُبرًا بما سيكون من فتن وسوء ونفاق، حتى احتاج إلى علمه كبارُ الصحابة، وطفِق مثلُ عمرَ -رضي الله عنه- يسأله، ويستشيره.

والمغزى الأكبر هنا يكمن في استجابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لحذيفة، وجوابه له، وقبولِهِ تعليمه علمَ الشر.

لم يقل له: «إننا في خير، ونسير من نصر إلى نصر، فاصرف عنك الهواجس»؛ بل أجابه، وأعلمه.

وإنما نستمد نحن مُسَوِّغاتِ تطرقِ بحوثِ فقهِ الدعوة لعلم الفتن والقواصم، وما ينجي منها من النور والعواصم، من مواطأة النبي -صلى الله عليه وسلم- لحذيفة، وتزويده له بما أراد. نتعلم علم الشر كي نراه ونميزه قبل أن يغزونا»[1].

---

(١) «العوائق» ص(١٧٣-١٧٥).

من طبائع الفتن

هذا، وإن للفتن طبائعَ وخصائصَ يُعين الاستبصار بها على تَوَقِّيها والنجاةِ منها، وما أكثر الفتن التي وقعت بسبب غياب البصيرة بهذه الطبائع.

*** فمن طبائع الفتن: أنها تتزين للناس في مباديها، حتى تُغْرِيهم بملابستها والتورط فيها.**

قال ابن عيينة عن خَلَف بن حوشب:

كانوا يستحبون أن يتمثلوا بهذه الأبيات عند الفتن: قال امرؤ القيس:

الحربُ أولُ ما تكونُ فَتيَّةً تَسْعى بزينتها لكلِّ جَهُولِ
حتى إذ اشتعلت وشَبَّ ضِرامُها ولَّتْ عجوزًا غيرَ ذاتِ حَليلِ
شمطاءَ يُنكَرُ لونُها وتغيَّرت مكروهةً للشمِّ والتقبيلِ

وكان خلف يقول: «ينبغي للناس أن يتعلموا هذه الأبيات في الفتنة»[(١)].

وقال الإمام ابن حزم[(٢)] -رحمه الله تعالى-: «نُوَّارُ الفتنةِ لا يَعْقِدُ»[(٣)].

---

(١) «السنن المأثورة للشافعي» ص(٣٤٤) رقم (٤٢٣)، «صحيح البخاري» (٩/ ٦٨) ط. دار الشعب.

(٢) «الأخلاق والسير» ص(٨٤).

(٣) وهذه الحكمة الرائعة من نتاج فكر ابن حزم الذي عاصر فتنة البربر في الأندلس، ورأى كيف كانت الآمال المعقودة على كل ثائر تنتهي بمآسٍ وأحزان وضحايا ودمار.

obeikandl.com

والنُّوَّار: الزهر؛ ويقال: عَقَد الزهرُ: إذا تضامَّتْ أجزاؤه فصار ثمرًا.

ومعنى كلام ابن حزم أن للفتنة مظهرًا خادعًا في مبدئه، حتى يستحسن الناسُ صورتَها، ويعقدوا الآمال عليها، ولكن سُرعان ما تموت وتتلاشى، مثل الزهرة التي تموت قبل أن تتفتح، وتُعطيَ ثمرتها.

* **والفتن تذهب بعقول الرجال، وتستخفهم ببُداءاتها:**

عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: «أخاف عليكم فتنًا كأنها الدخان، يموت فيها قلبُ الرجل، كما يموت بدنه»(١).

وعن حذيفة بن اليمان -رضي الله عنه- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**تكون فتنة تعرجُ فيها عقولُ الرجال، حتى ما تكاد ترى رجلًا عاقلًا**»(٢).

وعنه -رضي الله عنه- قال: «ما الخمر صِرفًا بأذهب بعقول الرجال من الفتنة»(٣).

وعن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «**إن بين يدي الساعة الهَرْجَ**» قالوا: وما الهرجُ؟ قال: «**القتل، إنه ليس بقتلكم المشركين، ولكن قتلُ بعضِكم بعضًا، حتى يقتل الرجل جاره، ويقتل أخاه، ويقتلَ عمَّه، ويقتلَ ابنَ عمه**» قالوا: ومعنا

---

(١) رواه نعيم بن حماد في «الفتن» (١/ ٦٥)، رقم (١١٧).

(٢) رواه نعيم في «الفتن» (١/ ٦٢) رقم (١٠٧)، وصححه الهندي في «كنز العمال» (١١/ ١٧٩) رقم (٣١١٢٦).

(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٧٤)، والصِّرف: غير الممزوج بغيره.

عقولُنا يومئذٍ؟ قال: «**إنه لَتُنزَع عقولُ أهلِ ذلك الزمان، ويَخْلُفُ له هباءٌ[١] من الناس، يحسب أكثرهم أنهم على شيء، وليسوا على شيء**»، قال أبو موسى: «والذي نفسي بيده ما أجد لي ولكم منها مخرجًا إن أدركتني وإياكم -إلا أن نخرج منها كما دخلنا فيها، ولم نصب منها دمًا ولا مالًا»[٢].

وقد حدد حذيفة -رضي الله عنه- مِحَكًّا يقيس به الإنسان مدى تأثره بالفتنة، فقال -رضي الله عنه-: «إن الفتنة تُعرضُ على القلوب، فأيُّ قلبٍ أُشرِبها: نُكِتت فيه نكتة سوداءُ، فإن أنكرها: نكِتت فيه نكتة بيضاءُ؛ فمن أحب منكم أن يعلم: أصابته الفتنةُ أم لا؟ فلينظر: فإن كان يرى حرامًا ما كان يراه حلالًا، أو يرى حلالًا ما كان يراه حرامًا، فقد أصابته الفتنة»[٣].

* **والفتنة -إذا جُففت منابعُها، وسُدت ذرائعها، وحُسِمت مادةُ أوائلها، وأُخِذَ علي أيدي سفهائها، ولم يُلتفت لقولهم: «ما أردنا إلا الخير»- سَلِمت الأمةُ من غوائلها، وكُفي الناسُ شرَّها.**

عن النعمان بن بشير -رضي الله عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «**مثل القائم على حدود الله والواقع** (وفي رواية: **والراتع**) **فيها، [والمدهِن فيها]**؛ كمثل قومٍ استهموا على سفينةٍ [في البحر]

---

(١) هباء: أي قليلو العقل، أراذل، وهو في الأصل: الغبار المُنبثُّ.

(٢) رواه الإمام أحمد رقم (١٩٤٩٢) (٣٢/ ٢٤١)، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٦٨٢).

(٣) «حلية الأولياء» (١/ ٢٧٢، ٢٧٣).

فأصاب بعضُهم أعلاها، و[أصاب] بعضُهم أسفلَها [وأوعرَها]، فكان الذي (وفي رواية: **الذين) في أسفلها إذا استقوا من الماء فمروا على من فوقهم، [فتأذوا به]** (وفي رواية: **فكان الذين في أسفلها يصعدون فيستقون الماء، فيصبون على الذين في أعلاها، فقال الذين في أعلاها: لا ندعكم تصعدون فتؤذوننا). فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا [فاستقينا منه]** ولم نؤذِ مَن فوقنا (وفي رواية: **ولم نمرَّ على أصحابنا فنؤذيهم)**، [فأخذ[١] فأسًا، فجعل يَنْقُرُ أسفلَ السفينة، فأتوه فقالوا: ما لك؟ قال: تأذيتم بي، ولا بُدَّ لي من الماء]، فإن تركوهم وما أرادوا؛ هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم؛ نجوا، وأنجوا جميعًا»[٢].

وكان النعمان بن بشير -رضي الله عنهما- إذا سرد هذا الحديث يقول قبله: «يا أيها الناس، خذوا على أيدي سفهائكم»، فإذا سرده عاد فقال: «خذوا على أيدي سفهائكم قبل أن تهلكوا»[٣].

«ولقد صدق الصادق المصدوق -صلى الله عليه وسلم- وصدق النعمان -رضي الله عنه- فكم من مخلصٍ جاهل يسلك سبيل صاحب الفأس هذا في سفينة الدعوة؟

ذاك حمل فأسًا، وصاحبنا يحمل اللسان.

---

(١) أي: أحدُهم.

(٢) رواه البخاري (٥/ ١٣٢- فتح)، والترمذي (رقم: ٢١٧٣)، والإمام أحمد (٤/ ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠)، واللفظ من «السلسلة الصحيحة» رقم (٦٩).

(٣) «الزهد» لابن المبارك ص(٤٧٥).

obeikandl.com

إنه يهدم، ويشكك، ويثبط، ويفرِّق، ويعصى، كل ذلك بدعاوى حسن النية، والنقد الذاتي، إنه يجهل أن القانون على السفينة إنما هو قانون العاقبة دون غيرها، فالحكم لا يكون على العمل بعد وقوعه، بل على الشروع فيه، بل على توجيه النية إليه، فلا حرية هنا في عملٍ يُفسد السفينة ما دامت ملجَّجة في بحرها، سائرة إلى غايتها.

إن كلمة (الخرق) لا تحمل في السفينة معناها الأرضي، بل معناها البحري، فهناك لفظة (أصغر خرق) ليس لها إلا معنى (أوسع قبر).. في قاع المحيط المظلم، لو تُرك هذا الخرق الصغير وشأنه.

وكذا حسن النية، إنه لا يحمل عندنا في علاقاتنا معناه الأخروي الذي يحاسب الله بموجبه عباده، فالإفساد واحد حتى وإن كان بنية حسنة.

أفما رأيت حالة هذه الطائفة التي في (الأسفل) تعمل لرحمة من هم في (الأعلى)؟

إنها قصة القواعد الساذَجة مع القيادات العاملة:

عواطف ملتهبة.. لكنها بادرة.

ومشاعر صادقة.. لكنها كاذبة.

ورحمة خالصة.. لكنها مهلكة، إنهم المصلحون إصلاحًا مخروقًا»[1].

---

(١) انظر: «العوائق» ص(٢١٠-٢١٢)، «وحي القلم» (٧١٣).

*** ومن طبائع الفتن: أنها متى ما وقعت فإنها سَرعان ما تتطور، وتخرج عن حدود السيطرة، حتى إنها لتستعصي على من أشعلوها إن حاولوا إطفاءها.**

قال بعض أشياخ الشام: «مَن أعطى مِن نفسه أسبابَ الفتنةِ أولًا، لم ينجُ آخِرًا، ولو كان جاهدًا».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: «والفتنة إذا وقعت عجز العقلاءُ فيها عن دفع السفهاء... وهذا شأن الفتن كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، وإذا وقعت الفتنة لم يسلم من التلوث بها إلا من عصمه الله»[1].

(١) «منهاج السُّنَّة النبوية» (٤/ ٣٤٣).

obeikandl.com

نور الفطنة يبدد ظلمات الفتنة

ويتفاوت الناس في مدى استبصارهم بحقيقة الفتنة، واستجلاء عواقبها، تَبَعًا لما أوتوه من التقوى، والفقه.

«فالقلب كالعين في إبصارها، فتجد عينًا لا تبصر البعيد، وأخرى لا تبصر بمجرد وجود ضباب طفيف، أو غبار خفيف، فضلًا عن أن تكون في ظلام، فإبصار القلب تابع لقوة الفقه، ونور الإيمان، ومقدارهما»[(١)].

وقد شَبَّه النبي -صلى الله عليه وسلم- الفتنة بقطع الليل المظلم، أي: الذي لا قمر فيه ولا ضياء، فالساري فيه على شفا هلكة إن لم يكن معه نور يبصر به مواقع قدمه، وهو في حال الفتن نور العلم الذي يكشف أهلَها، ويبين حالها.

قال حذيفة -رضي الله عنه-: «لا تضرك الفتنة ما عرفت دينك، إنما الفتنة إذا اشتبه عليك الحق والباطل».

وقد سمَّى الله تعالى كتابه العزيز نورًا؛ فقال -عز من قائل-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾[النساء: ١٧٤]، وقال سبحانه: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [التغابن: ٨]، وقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[الأعراف: ١٥٧].

---

(١) «العوائق» ص(٢٩).

وسماه «بصائر» فقال -عزَّ وجلَّ-: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنعام: ١٠٤]، وقال سبحانه: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الجاثية: ٢٠].

وقد صحَّ عن عبد الرحمن بن أبزى قال: قلتُ لأُبي بن كعب لما وقع الناس في أمر عثمان: أبا المنذر ما المخرج؟ قال: «كتابُ الله، ما استبان لك فاعمل به، وما اشتبه عليك فكِلْه إلى عالمه»[(١)].

وقال أبو مسعود لحذيفة -رضي الله عنه-: «إن الفتنة وقعت، فحدثني ما سمعته» قال: «أَوَلم يأتكم اليقين؟ كتابُ الله عزَّ وجلَّ»[(٢)].

---

(١) «التاريخ الأوسط» للبخاري (١/ ٦٤).

(٢) «حلية الأولياء» (١/ ٢٧٤).

obeikandl.com

العلماء سفينة نوح

قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]، وقال -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

قال العلَّامة السعدي -رحمه الله تعالى-: «وفي هذا دليل لقاعدة أدبية، وهي أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور ينبغي أن يُولَّى مَن هو أهلٌ لذلك، ويُجعلَ إلى أهله، ولا يُتقدم بين أيديهم، فإنه أقرب إلى الصواب، وأحرى للسلامة من الخطأ»[(١)].

إن ذهاب العلم مقترن برواج الفتن، وإن الالتحام بالعلماء عصمة للأمة من الضلال، والعلماء سفينة نوح، من تخلَّف عنها -لا سيما في زمان الفتن- كان من المغرقين.

عن ابن مسعود وأبي موسى -رضي الله عنهما- قالا: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**إن بين يدي الساعة لأيامًا ينزل فيها الجهل، ويُرفع فيها العلم، ويكثر فيها الهَرْجُ؛ والهرج القتل**»[(٢)].

وعن أنسٍ -رضي الله عنه- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**من أشراط الساعة أن يقل العلمُ، ويظهرَ الجهل**»[(٣)].

---

(١) «تفسير السعدي» ص(١٩٠).
(٢) رواه البخاري (١٣/ ١٣- فتح).
(٣) رواه البخاري (١/ ١٧٨- فتح).

وسبب قلة العلم موت حَمَلَتِهِ، كما في الصحيحين عن عبد الله بن عمرٍو -رضي الله عنهما- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**إن الله لا يقبض العلمَ انتزاعًا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يترك عالمًا اتخذ الناس رءوسًا جُهَّالًا، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضَلُّوا، وأضَلُّوا**»(١).

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «أتدرون ما ذَهاب العلم؟» قلنا: لا، قال: «ذهاب العلماء»(٢).

وعنه -رضي الله عنه- قال: «لا يزال عالم يموت، وأثر للحق يَدْرُس، حتى يكثر أهل الجهل، وقد ذهب أهلُ العلم، فيعملون بالجهل، ويدينون بغير الحق، ويضلون عن سواء السبيل»(٣).

وعن هلال بن خباب قال: سألت سعيد بن جبير، قلت:

يا أبا عبد الله! ما علامة هلاك الناس؟ قال: «إذا هلك علماؤهم»(٤).

وعن زياد بن لبيد -رضي الله عنه- قال: ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- شيئًا، فقال: «**ذاك أوانُ ذَهاب العلم**»، قلت: يا رسول الله، وكيف يذهب العلم، ونحن نقرأ القرآن، ونُقرئه أبناءنا، ويُقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة؟ قال: «**ثكلتك أمك يا زياد إن كنتُ لأراك من**

---

(١) رواه البخاري رقم (١٠٠) (١/ ١٧٤، ١٧٥)، ومسلم رقم (٢٦٧٣).

(٢) رواه الدارمي (١/ ٧٨).

(٣) «جامع بيان العلم» (١/ ٦٠٣) رقم (١٠٣٩).

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٥/ ٤٠).

أفقه رجل بالمدينة، أَوَليس اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيل لا يعملون بشيء مما فيهما؟»[١].

وعن أبي أمامة -رضي الله عنه- مرفوعًا: «**خذوا العلم قبل أن يذهب**»، قالوا: وكيف يذهب العلم يا نبي الله، وفينا كتاب الله؟ قال: فغضب -لا يُغْضبه اللهُ- ثم قال: «**ثكلتكم أمهاتكم، أَوَلم تكن التوراة والإنجيل في بني إسرائيل، فلم يغنيا عنهم شيئًا؟! إن ذَهاب العلم: أن يذهب حَمَلَتُه**»[٢].

---

(١) «صحيح ابن ماجه» رقم (٣٢٧٢) (٢/ ٣٧٧).

(٢) رواه الدارمي (١/ ٧٧، ٧٨)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ٢٧٦) رقم (٧٩٠٦).

obeikandl.com

الدنيا كلها ظلمة، إلا مجالس العلماء[١]

قال الإمام أبو بكر الآجري -رحمه الله تعالى-: «فما ظنكم -رحمكم الله- بطريق فيه آفات كثيرة، ويحتاج الناس إلى سلوكه في ليلة ظلماء، فإن لم يكن فيها ضياء وإلا تحيَّروا، فقيَّض الله لهم فيه مصابيح تضيء لهم، فسلكوه على السلامة والعافية، ثم جاءت طبقات من الناس، لا بد لهم من السلوك فيه فسلكوا، فبينما هم كذلك إذ طفئت المصابيح، فبقوا في الظلمة، فما ظنكم بهم؟

هكذا العلماء في الناس، لا يعلم كثير من الناس كيف أداءُ الفرائض، ولا كيف اجتنابُ المحارم، ولا كيف يُعْبد الله في جميع ما يَعبده به خلقُه إلا ببقاء العلماء، فإذا مات العلماء تحيَّر الناس، ودَرَس العلم بموتهم، وظهر الجهل»[٢]. اهـ.

إن مهمة المبصرين هي التبصير، ولا سيما في أوقات الفتن؛ حيث يكون العلماء الفاقهون وحدهم هم المستشرفين لنتائجها في لحظات إقبالها على حَدِّ قول الحماسي:

تبين أعقابُ الأمور إذا مضت ... وتُقبل أشباهًا عليك صدورُها

وقول الآخر:

لو أن صدور الأمر يبدون للفتى ... كأعقابه لم تلفه يتندَّم

---

(١) من كلام الحسن البصري -رحمه الله تعالى-.

(٢) «أخلاق العلماء» ص(٩٦).

وقول الآخر يمدح ذا البصيرة النافذة:

بصيرٌ بأعقاب الأمور برأيه كأنَّ له في اليوم عينًا على غدِ

ولهذا قال الحسن البصري -رحمه الله تعالى-:

«الفتنة إذا أقبلت عرفها [١] كل عالم[٢] ، وإذا أدبرت عرفها[٣] كل جاهل».

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فأهل العلم هم أهل البصيرة الذين نوَّر الله قلوبهم فميزوا الحق من الباطل:

عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: حدَّثنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حديثًا طويلًا عن الدجال، فكان فيما يحدثنا أنه قال:

يأتي الدجال -وهو محرَّم عليه أن يدخل نقاب المدينة- فينزل بعض السباخ التي تلي المدينة، فيخرج إليه يومئذٍ رجل هو خير الناس، أو من خيار الناس، فيقول: «أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حديثه»، فيقول الدجال: «أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته، هل تشكون في الأمر؟»، فيقولون: لا، فيقتله، ثم يحييه،

---

(١) بأن يشاهدها بنور بصيرته.

(٢) فإن كان علمه كاملًا أبصرها قبل مجيئها ورأى نتائجها، وكأنه يهتك حُجُبَ الغيب، ويتأخر وقت إدراكه لضررها كلما كان علمه أقل.

(٣) إذا انتهت، فلا فضل للجاهل في رؤية تشتت دعاتها وإفلاسهم، فإنها تكون مشاهدةَ عينٍ وبصرٍ، لا إدراك عقل وبصيرة؛ ولذلك يتمكن منها من لا عقل له أيضًا.

فيقول: «والله ما كنت فيك أشدَّ بصيرةً مني اليوم»، فيريد الدجال أن يقتله، فلا يُسلَّط عليه[١].

إن الالتحام بالعلماء والصدور عن توجيههم من أهم سبل الوقاية من الفتن، والعصمة من الزيغ والضلال.

فقد أعزَّ الله دينه بالصِّدِّيق الأكبر -رضي الله عنه- يوم الردة، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة.

وبابن تيمية يوم الغزو التتاري الوحشي حين حرَّض الأمراءَ والعامةَ على التصدي للتتار، وارتاب الناس في حكم قتالهم، حتى قال شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى-: «لو رأيتموني في صف التتر مواليًا لهم، وعلى رأسي مصحف، فاقتلوني»، فتشجع الناس في قتال التتر، وقويت قلوبهم.

وتأمل: كيف كشف السَّنوسي زيف دعوى المهدي السوداني؟![٢]

وكيف كشف الألباني وابن باز ببصيرة نافذة زيف دعوى المهدي القحطاني؟[٣]

وكيف وفَّرت البيئة الجاهلة المناخ المناسب لاحتضان ونُصرة مهدي المغاربة ابن تومرت[٤]، وغيرهم.

---

(١) رواه البخاري (١٣/ ١٠١)، واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢٢٥٦) رقم (٢٩٣٨)، وانظره أيضًا: (٤/ ٢٢٥٦) رقم (٢٩٣٨).

(٢) «المهدي» للمؤلف ص(٥١٤ -٥١٦).

(٣) «نفس المصدر» ص(٥٥٧).

(٤) «نفسه» ص(٤١٨، ٤١٩).

والجاهلون لأهل العلم أعداء

ومما يجسد عداوة الجاهلين المبتدعين لأهل العلم والبصيرة:

- موقف فرقة «الحشاشين» وهي الفرقة الإسماعيلية الباطنية النزارية، فقد كانوا فرقة إرهابية تعمل على اغتيال خصوم دعوتهم الإسماعيلية الباطنية من حُكَّام الأقاليم الإسلامية ووزرائهم، وتغتال العلماء والفقهاء المناوئين لهم(١).

- موقف الجونبوري مدعي المهدية في «الهند» من العلم والعلماء: فقد كان يحظر على أتباعه طلب العلم بدعوى أن طلب العلم يضرهم، وكان يلزمهم بالاقتصار على صحبة مشائخ «المهدوية» مدعيًا أنهم المقصودون بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩].

وبعد وفاة المهدي الجونبوري أخذ دعاته وأتباعه ينشرون مبادئ فرقتهم في أرجاء الهند، وقد وجدت هذه الحركة آذانًا صاغية في مناطق كثيرة من الهند، وفي إقليم «كجرات» أقبل كثير من العوام والجهلة والجنود وبعض العلماء على هذه الفرقة، وتكونت منهم قوة كبيرة، ووصل الأمر إلى أنه من ينكر الدعوة «المهدوية» يكفَّر، وإذا كان المُنكِر من أصحاب العلم والمعرفة، ومن وجهاء البلد؛ يُقتل(٢).

---

(١) مقدمة «زهر العريش في تحريم الحشيش للزركشي» تحقيق: د/ السيد أحمد فرج ص(٤٥).

(٢) «فرق الهند المنتسبة إلى الإسلام» ص(٢٤١).

وهذا الشيخ «علي المتقي الهندي» من كبار علماء الحديث في القرن العاشر الهجري يتحير في شأن «الجونبوري»، ويميل إليه، بل قيل: إنه اعتنق المهدوية، ولما وصل إلى مكة المكرمة بحث مع علمائها مسألة «خروج المهدي»، فتبين له الحق، فنذر نفسه للرد على هذه الفرقة.

وهو -رحمه الله تعالى- القائل في كتابه «البرهان في علامات مهدي آخر الزمان»: «وكفى دليلًا على بطلان اعتقاد هذه الطائفة قتلهم العلماء، فإن خصلتهم هذه تدل على عدم الدليل على اعتقادهم، وعجزهم عن إثبات معتقدهم، فهذه الخصلة وحدها تكفي على البطلان»(١).

ولما وزع داعية المهدوي الجونبوري «سيد عيسى» في عام (١٢٨٢هـ) ثلاثة كتب في الانتصار لعقيدة المهدوية في أرجاء الهند، وبعد سَنَةٍ رَفَعَ التماسًا في محكمة «حيدر أباد» قال فيه: «إن هذه الكتب وزعت على علماء البلاد، وانتظرتُ سنة كاملة فلم يرد عليها أحد، والآن أرفعها إلى حضرتكم للنظر فيها، فإذا كان فيها ما يخالف العقيدة الإسلامية فنحن نتوب عنها ونرجع إلى الحق، وإذا كان ما فيها صحيحًا فالرجاء منكم الاعتراف بهذا المذهب، والتصديق به، والمساعدة على نشرها، فبعث القاضي هذه الكتب إلى الشيخ «محمد زمان خان الشاهجهان بوري»، فحملته الغيرة الدينية على الردِّ على هذه الكتب، وألف كتابه المشهور «هدية مهدوية»، وبعد نشر هذا الكتاب أعلن داعية المهدوي «سيد

(١) «المصدر نفسه» ص(٢٩١).

عيسى» في أتباعه أن من يقتل الشيخ «محمد زمان خان» فله قصران في الجنة، وأربع نخلات، فاندفع شاب مهدوي لتنفيذ اغتياله، وأخذ يتحين الفرص، وفي يوم من الأيام وجد الشيخ وحيدًا في المسجد بين المغرب والعشاء يقرأ القرآن الكريم، فجاء من خلفه، وضربه بالسيف، وهرب، وفاضت روح الشيخ فورًا، رحمه الله رحمة واسعة، وتقبله في الشهداء البررة[1].

وفي العصر المتأخر اغتالت يدُ الغدر والجهل العالِمَ السلفيَّ المجاهدَ «إحسان إلهي ظهير» الذي وقف حياته على الذبِّ عن الإسلام والسُّنَّة، وكان سيفًا سَليطًا على أعدائهما، وببركة جهاده بلسانه وقلمه انحسرت كثير من الفرق الضَّالة، وخمد نشاطها، وقد سجن مرات عديدة بسبب نشاطه في قمع البدع، وما زال يذب عن حوزة الإسلام، وينصر السُّنَّة حتى اغتاله المبتدعون المارقون أثناء إلقائه محاضرة في (٢٣ رجب ١٤٠٧هـ) في جمعية أهل الحديث بلاهور بباكستان بحضور ألفي شخص، حيث زرعت قنبلة بجوار المنصة التي كان يحاضر عليها، وقتل عشرة من العلماء وعدد من الحضور، ونقل إلى الرياض لعلاجه، ولكن وافته المنية بعد أيام، وصلى عليه الإمام المجدد عبد العزيز بن باز -رحمه الله تعالى- ودفن في مقبرة البقيع مع خير أولياء الله بعد الأنبياء ممن كان يدافع عنهم، ويذب عن أعراضهم من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وآل

(١) «نفسه» ص(٢٩٣، ٢٩٤).

بيته الطاهرين، وأمهات المؤمنين -رضي الله عنهم أجمعين-، فنعم الجوار، ونعم الجار[١].

نسأل الله تعالى أن يكرم نزله، وأن يتقبل عمله، وأن يرزقه الفردوس الأعلى من الجنة في روح وريحان، وجنة نعيم.

ولولا خشية الإطالة لذكرنا صورًا كثيرة لحقد المبتدعة الجهال وإراقتهم دماء العلماء[٢].

(١) انظر: «إحسان إلهي ظهير: الجهاد والعلم من الحياة إلى الممات ١٣٦٠-١٤٠٧هـ» تصنيف الشيخ محمد بن إبراهيم الشيباني - مكتبة ابن تيمية- الكويت (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م).

(٢) انظر: «الحقد الدفين على العلماء والصالحين» لجامعه من «سير أعلام النبلاء» عبيد بن أبي نفيع الشعبي- ط. دار الوطن- الرياض- ١٤١٣هـ.

obeikandl.com

الصبر زمن الفتن

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣].

وقال -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

فالله -سبحانه وتعالى- يجزي المؤمن على صبره، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٩-١١١]، فأخبر سبحانه أنه جزاهم على صبرهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَۗ﴾ [الفرقان: ٢٠].

أي: أتصبرون على البلاء، فقد عرفتم ما وجد الصابرون، فقرن الله -سبحانه- الفتنة بالصبر ها هنا، وفي قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [النحل: ١١٠].

عن أُسيد بن حُضَير -رضي الله عنه- أن رجلًا أتى النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله! استعملتَ فلانًا ولم تستعملني، فقال

النبي -صلى الله عليه وسلم-: «**إنكم سترون بعدي أُثْرة** -وفي لفظ: **ستلقون بعدي أثرة- فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**»[(١)]

وعن أمير المؤمنين معاوية -رضي الله عنه- قال: سمعتُ النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: «**لم يبقَ من الدنيا إلا بلاء وفتنة**»[(٢)].

وقد جعل النبي -صلى الله عليه وسلم- الصبر أوسع العطاء، فقال كما في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-: «**وما أُعطي أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر**»[(٣)]، وذلك أن الصبر لا يعقبه إلا السعة واليسر، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح: ٥، ٦]؛ ولذا قال عمر -رضي الله عنه-: «أدركنا خير عيشنا بالصبر».

أَمَا والذي لا خُلْدَ إلا لوجهه ... ومن ليس في العز المنيع له كفو
لئن كان بدء الصبر مُرًّا مذاقُهُ ... لقد يُجتني مِن غِبِّه الثمرُ الحلو

وعن المقداد بن الأسود -رضي الله عنه- قال: ايْمُ الله، لقد سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: «**إن السعيد لَمَنْ جُنِّبَ الفتن، إن السعيد لَمَنْ جُنِّبَ الفتن، إن السعيد لَمَنْ جُنِّبَ الفتن، ولَمَنْ ابتُلِيَ فَصبر، فَوَاهًا**»[(٤)].

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٦٤٤- فتح) رقم (٤٣٣٠)، والأُثْرة: الانفراد بالشيء المشترك دون من يشركه فيه، وقيل: الشدة.

(٢) تقدم تخريجه ص(٩).

(٣) رواه البخاري (٢/ ١٥٢)، ومسلم باب (٤٢) رقم (١٢٤).

(٤) أخرجه أبو داود في الفتن والملاحم، باب النهي عن السعي في الفتن: (٤/ ٤٦٠)، رقم (٤٢٦٣)، وسكت عليه المنذري في «مختصر أبي داود»: (٦/ ١٤٨)،=

وعن أبي ذر -رضي الله عنه- قال: قال لي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**يا أبا ذر**» قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك -فذكر الحديث- قال فيه: «**كيف أنت إذا أصاب الناسَ موتٌ يكون البيتُ فيه بالوصيف؟**» -يعني: القبر- قلت: الله ورسوله أعلمُ، أو قال: ما خار الله لي ورسوله[(١)]، قال: «**عليك بالصبر**» أو قال: «**تصبر...**» الحديث[(٢)].

وفي رواية أن أبا ذر قال: ركب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حمارًا، وأردفني خلفه وقال: «**يا أبا ذر: أرأيت إن أصاب الناسَ جوعٌ شديد لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك، كيف تصنع؟**» قال: الله ورسوله أعلم، قال: «**تعفف**» قال: «**يا أبا ذر: أرأيت إن أصاب الناس موت شديد يكون البيت فيه بالعبد** -يعني: القبر- **كيف تصنع؟**» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**اصبر...**» الحديث[(٣)].

= وصححه الألباني في «صحيح أبي داود»: (٣/ ٨٠٣). و«واهًا» كلمة تعني التلهف، أو يعبر بها عن الإعجاب بالشيء، فكأنه قال: ما أحسن وما أطيب من ابتلي بالفتن فصبر على البلاء!

(١) أي: ما اختار الله لي ورسوله. «عون المعبود»: (١١/ ٣٤٢)، «بذل المجهود»: (١٧/ ١٦٦).

(٢) أخرجه أبو داود في الفتن والملاحم، باب في النهي عن السعي في الفتنة: (٤/ ٤٥٨، رقم ٤٢٦١)، وابن ماجه في الفتن، باب التثبت في الفتن: (٢/ ١٣٠٨، رقم ٣٩٥٨)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود»: (٣/ ٨٠٣)، و«صحيح ابن ماجه»: (٢/ ٣٥٥).

(٣) رواه الإمام أحمد (٥/ ١٤٩) بهذا اللفظ، وهو بنحو لفظ أبي داود وابن ماجه المذكور قبله، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»: (٢/ ١٢٩٠)، رقم (٧٨١٩).

obeikandi.com

والمراد بالبيت المذكور في الروايتين: القبر، كما هو مصرَّح به في الحديث، وكما ذكره جمع من أهل العلم؛ كالخطابي[١]، وابن الأثير[٢] وغيرهما.

وأما الوصيف: فهو العبد أو الخادم، والوصيفة: الأمة، يُريد أن الناس يُشغلون عن دفن موتاهم، وهذا يدل على أن الفتن تكثر، فتكثر القتلى، حتى إنه ليشتري موضع قبر يدفن فيه الميت بعبدٍ، من ضيق المكان عليهم، مبالغةً في كثرة وقوع الفتن، أو لاشتغال بعضهم ببعض، وبما حدث من الفتن لا يوجد من يحفر قبر ميت ويدفنه، إلا أن يعطى وصيفًا أو قيمته[٣].

وعن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**يأتي على الناس زمان، الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر**»[٤].

قال الطيبي: «المعنى: كما لا يقدر القابض على الجمر أن يصبر لإحراق يده، كذلك المتدين يومئذٍ لا يقدر على ثباته على دينه لغلبة العصاة والمعاصي وانتشار الفسق وضعف الإيمان»[٥].

---

(١) «معالم السنن» (٤/ ٤٥٨).
(٢) «جامع الأصول» (١٠/ ٨).
(٣) «نفس المصدر».
(٤) أخرجه الترمذي في الفتن، باب (٧٣): (٤/ ٢٥٦، رقم ٢٢٦٠) وهو حديث صحيح بشواهده كما قال الألباني في «الصحيحة»: (٩٥٧)، و«صحيح الترمذي»: (٢/ ٢٥٦).
(٥) «تحفة الأحوذي» (٦/ ٥٣٩).

obeikandl.com

وقال القاري: «الظاهر أن معنى الحديث: كما لا يمكن القبض على الجمرة إلا بصبر شديد وتحمُّل غلبة المشقة كذلك في ذلك الزمان، لا يتصور حفظ دينه ونور إيمانه إلَّا بصبر عظيم». انتهى[١].

(١) «نفس المصدر» (٦/ ٥٣٩).

obeikandl.com

مقارنة الحِلم والرفق، ومفارقة العجلة والطيش

عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «**إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ**»(١).

وعنها -رضي الله عنها- قالت: اسْتَأْذَنَ رَهْطٌ مِن الْيَهُودِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ، فَقُلْتُ: بَلْ عَلَيْكُم السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، فَقَالَ: «**يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ**»، قُلْتُ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: «**قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ**»(٢).

وعن جرير -رضي الله عنه- قال: سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: «**مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الخَيرَ كُلَّهُ**»(٣).

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما-قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لِأَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ «**إِنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الحِلْمُ**(٤)**وَالْأَنَاةُ**»(٥).

وعن خباب بن الأرتِّ -رضي الله عنه- قال: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فقلنا: أَلَا

---

(١) رواه مسلم (٢٥٩٤)، (١٦/ ١٤٦- نووي).

(٢) رواه البخاري (٦٩٢٧)، واللفظ له، ومسلم (٢١٦٥).

(٣) رواه مسلم (٢٥٩٢)، (١٦/ ١٤٥- نووي).

(٤) الحِلم: ترك العجلة، وهو خلاف الطيش ونقيض السفه، وقال الراغب: «هو ضبط النفس والطبع عند هيجان الغضب»، «المفردات» ص(١٢٩).

(٥) رواه مسلم في الإيمان (١٧) (٢٥).

تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلَا تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ: «قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»[١].

وعن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «التَّأَنِّي مِنَ الله، وَالعَجَلَةُ مِنَ الشَّيطَانِ، وَمَا أَحَدٌ أَكْثَر مَعَاذيرَ مِنَ الله، وَمَا مِنْ شَيءٍ أَحَبُّ إِلى الله مِنَ الحِلْمِ»[٢].

والعَجَلة: فعل الشيء قبل وقته اللائق به، وكانت العرب تَكْني العجلة أمَّ الندامات[٣].

وقال عطاء بن أبي رباح -رحمه الله تعالى-: «ما أوى شيءٌ إلى شيءٍ أزين من حِلمٍ إلى علمٍ»[٤].

وقال وهب بن منبه -رحمه الله تعالى-: «الرفق ثِنْيُ الحِلم»[٥].

---

(١) رواه البخاري (١٢/ ٣١٥، ٣١٦- فتح).

(٢) عزاه الهيثمي إلى أبي يعلى؛ وقال: «رجاله رجال الصحيح». اهـ. من «مجمع الزوائد» (٨/ ١٩)، وله شاهد من حديث سهل بن سعد -رضي الله عنه-، رواه الترمذي (٢٠١٢).

(٣) «روضة العقلاء»، ص(٢٨٨).

(٤) رواه الدارمي (٥٧٦)، (١/ ١٥٢).

(٥) «الإحياء» (٣/ ١٨٦)، الثِّنْيُ: الولد الثاني.

وقال حكيمُ العرب «أكثم بن صيفي»[١]: «دِعامة العقل الحِلم، وجِمَاع الأمر الصبر»[٢].

وقال أمير المؤمنين عليٌّ -رضي الله عنه-: «إن أولَ ما عَوَّضَ الحليمَ مِن حِلمه أن الناسَ كلَّهم أعوانُه على الجاهل»[٣].

وقال أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنهما-: «لا يبلغُ العبدُ مبلغَ الرأي حتى يغلبَ حِلْمُه جهلَه، وصبرُه شهوتَه، ولا يبلغ ذلك إلا بقوة العلم»[٤].

وسأل -رضي الله عنه- عمرَو بنَ الأهتم: أيُّ الرجال أشجع؟ قال: «من رَدَّ جهلَه بحِلْمِه»، قال: فأي الرجال أسخى؟ قال: «من بذل دنياه لصالح دينه»[٥].

وقال معاوية -رضي الله عنه- لرجلٍ شَهِدَ عنده بشهادةٍ: «كذبتَ»، فقال الأعرابي: «إن الكاذب لَلْمُتَزَمِّلُ في ثيابك»، فقال معاوية -رضي الله عنه-: «هذا جزاء من يَعْجَل»[٦].

وقال الأوزاعي: «كان عمر بن عبد العزيز إذا أراد أن يعاقب رجلًا حبسه ثلاثًا، ثم عاقبه؛ كراهيةَ أن يعجل في أول غضبه»[٧].

---

(١) انظر: «الإصابة» (١/ ٢٠٩)، و«الأعلام» للزركلي (٢/ ٦).
(٢) «نفس المصدر» (٣/ ١٧٨).
(٣) «السابق» (٣/ ١٧٨).
(٤) «السابق» (٣/ ١٧٨).
(٥) «السابق» (٣/ ١٧٨).
(٦) «روضة العقلاء»، ص(٢٩٠).
(٧) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ١٣٣).

وقال مُطَرِّف: «أتى على الناسِ زمانٌ خيرُهم في دينهم المتسارع، وسيأتي على الناس زمانٌ خيرهم في دينهم المتأنِّي».

قال علي بن عَثَّام في تفسيره: «كانوا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه إذا أُمروا بالشيء تسارعوا إليه، وأمَّا اليومَ فينبغي للمؤمن أن يتبين، فلا يُقْدم إلا على ما يعرف»[١].

وقال محمد بن بشير:

قدِّر لِرجلك قبل الخطوِ موضعَها فمن علا زَلَقًا عن غِرَّةٍ زَلجَا[٢]

أي: لا تأتِ أمرًا حتى تفكر في مغبته وعاقبته: فإن كان لك أقبلت عليه، وإن كان عليك كففتَ عنه.

وعن حفص بن غياثٍ، قال: قلت لسفيانَ الثوريِّ: «يا أبا عبد الله، إن الناسَ قد أكثروا في المهدي، فما تقول فيه؟ قال: إن مَرَّ على بابك؛ فلا تكن منه في شيء، حتى يجتمع الناس عليه»[٣].

وقال عبد الله: «إنها ستكون هَنَاتٌ، وأمورٌ مشبهات، فعليك بالتؤدة، فتكون تابعًا في الخيرِ خيرٌ من أن تكون رأسًا في الشر»[٤].

وعن حذيفة -رضي الله عنه- قال: «إياكم والفتنَ لا يشخص إليها أحد؛ فوالله، ما شخص فيها أحد، إلا نسفته، كما ينسف السيلُ

---

(١) «حلية الأولياء» (٢/ ٢٠٩)، و«شعب الإيمان» (٢/ ٣٠٥)، واللفظ له.

(٢) الغِرَّة: الجهالة والغفلة. زَلَجَ: زلق. أي: من لم يأت أمره عن علم لم يُصِب بغيته.

(٣) «حلية الأولياء» (٧/ ٣١).

(٤) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٥/ ٣٤)، والهَنَاتُ: جمع هَنَة، تأنيث هَنٍ، وهو كناية عن كل اسم جنس، والمراد: شرورٌ، وفساد، وشدائد، وأمور عظام، وانظر: «النهاية» (٥/ ٢٧٩).

الدِّمَن؛ إنها مُشَبَّهَةٌ مقبلةً، حتى يقولَ الجاهلُ: هذه تُشَبَّه؛ وتُبَيَّنُ مدبرةً؛ فإذا رأيتموها: فاجثموا في بيوتكم، وكسِّروا سيوفكم، وقطعوا أوتاركم»[١].

وعنه -رضي الله عنه- أنه ذكر فتنة، فقال: «تُشَبَّهُ مُقْبِلَةً، وتُبَيَّنُ مُدْبِرةً»[٢].

قال شمر: «معناه: أن الفتنة إذا أقبلت شَبَّهَت على القوم، وأرتهم أنهم على الحق؛ حتى يدخلوا فيها، ويركبوا منها ما لا يحل؛ فإذا أدبرت وانقضت بَانَ أمرها، فَعَلِمَ من دخل فيها أنه كان على الخطأ»[٣].

فلا تُخْدَعْ بأولِ ما تراه ... فأولُ طالعٍ فجرٌ كذوبُ

وفي مثل هذا المعنى قال شبيب بن البرصاء:

تَبَيَّنُ أعجازُ[٤] الأمورِ مَواضيًا ... وتُقْبِلُ أَشْباهًا عليكَ صُدُورُها[٥]

ومثله قول الشاعر:

تشابَهُ أعناقُ[٦] الأمورِ بواديًا ... وتظهرُ في أعقابها حين تُدْبِرُ

ومثله قول قتيبة بن عمرٍو الأسدي:

يشُكُّ عليك الأمرُ ما دام مقبلا ... وتعرفُ ما فيه إذا هو أَدْبَرا

---

(١) «حلية الأولياء» (١/ ٢٧٣).
(٢) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٥/ ٢٠).
(٣) «لسان العرب» (١٣/ ٥٠٣، ٥٠٤).
(٤) أعجاز الأمور: أواخرها.
(٥) صدورها: أوائلها.
(٦) أعناق الأمور: أوائلها.

openkandil.com

وقال الشاعر يذم قومًا:

ولا يتقونَ الشرَّ حتى يصيبَهم ولا يعرفونَ الأمرَ إلا تدبرا

قال أبو حاتم محمد بن حبان البستي -رحمه الله تعالى-: «إن العاجل لا يَكاد يلحق؛ كما أن الرافق لا يكاد يُسْبَق، والساكت لا يكاد يندم، ومن نطق لا يكاد يسلم، وإن العَجِل يقول قبل أن يعلم، ويجيب قبل أن يفهم، ويحمد قبل أن يُجَرِّبَ، ويذم بعدما يحمد، ويعزم قبل أن يفكر، ويمضي قبل أن يعزم، والعَجِلُ تصحبهُ الندامة، وتعتزله السلامة، وكانت العرب تكْني العجلَةَ أمَّ الندامات»[١].

لا تَعْجَلَنَّ فَرُبَّمَا عَجِلَ الْفَتَى فِيمَا يَضُرُّهْ
وَلَرُبَّمَا كَرِهَ الْفَتَى أَمْرًا عَوَاقِبُهُ تَسُرُّهْ[٢]

وفي المثل: «إذا لم تستعجل؛ تَصِلْ».

وقال القُطامي:

قَدْ يُدْرِكُ المتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمستَعْجِلِ الزَّلَلُ
وربما فات بعضَ القومِ أمرهمُ مع التأني وكان الرأيُ لو عَجِلُوا[٣]

وقال عمرو بن العاص لابنه عبد الله -رضي الله عنهما-: «الخَرَقُ معاداةُ إمامِك، ومناوأةُ مَن يَقْدِرُ على ضررك»[٤].

---

(١) انظر: «روضة العقلاء»، ص(٢١٦).
(٢) «بصائر ذوي التمييز» (٤/ ٢٤).
(٣) «العقد الفريد» (٣/ ٥٢).
(٤) «الإحياء» (٣/ ١٨٨).

openkandil.com

وقال الحسن البصري -رحمه الله تعالى-: «إنما يُكَلَّمُ مؤمنٌ يُرجَى، أو جاهلٌ يُعَلَّم، فأما من وضع سيفه أو سوطه؛ وقال لك: اتقني اتقني! فما لك وله؟!»[١]

وعن الشعبي قال: أغلظ رجلٌ لمعاوية، فقال: «أنهاك عن السلطان، فإن غَضبَه غضبُ الصبي، وأخذَهُ أخذُ الأسد»[٢].

فَائِدَةٌ

مَعْنَى قَوْلِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ -رضي الله عنه- في الرُّومِ: «إِنَّهُمْ لأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ»:

قال المستورِدُ القرشي عند عمرو بن العاص -رضي الله عنه-: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: «**تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ**» فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو: أَبْصِرْ مَا تَقُولُ، قَالَ: أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ؛ إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالًا أَرْبَعًا: إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ، وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ، وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ، وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ، وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ: وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الملُوكِ»[٣].

---

(١) انظر: «حلية الأولياء» (٢/٢٠٩)، و«التمهيد» لابن عبد البر (٢٣/٢٨٢)، و«جامع العلوم والحكم» ص (٣٢٣).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ١٥٣).

(٣) رواه مسلم في «الفتن» (١٨/ ٢٢- نووي)، وحكى الأُبِّيُّ في «إكمال إكمال المُعْلِم» عن القرطبي قوله: «هذه الخلال الأربع الحميدة لعلها كانت في الروم التي أدرك،=

والشاهد قوله -رضي الله عنه-: «إِنَّهُمْ لأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ»؛ «يعني: إذا ظهر تغير الحال، وظهرت الفتن؛ فإنهم يحلُمون، ولا يعجلون، ولا يغضبون؛ لِيقُوا أصحابهم النصارى القتلَ، ويقوهم الفتنَ؛ لأنهم يعلمون أن الفتنة إذا ظهرت؛ فإنها ستأتي عليهم؛ فلأجل تلك الخصلة فيهم، بقوا أكثر الناس إلى قيام الساعة؛ ولهذا فإننا نعجب أن لا نأخذ بهذه الخصلة التي حمد بها عمرو بن العاص -رضي الله عنه- الروم، وكانت فيهم تلك الخصلة الحميدة، ونحن أولى بكلِّ خَيْرٍ عند مَن هم سوانا»[1].

= وأما اليوم فهم أنحس الخليقة، وعلى الضد من تلك الأوصاف»، وقال الأُبِّيُّ: «هو مدح لتلك الأوصاف، لا أنها مدحٌ لهم؛ من حيث اتصافهم بها، ويحتمل أنه إنما ذكرها من حيث إنها سبب كثرتهم، وإلا فهم على الضد كما ذكر، ولا سيما فيما ذكر من كَرِّهِم بعد فرِّهم؛ فإنهم الآن ليسوا كذلك». اهـ، (٧/ ٢٤٦).

(١) «الضوابط الشرعية لموقف المسلم من الفتن»، للشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله تعالى-، ص(١٨، ١٩).

obeikandl.com

الإمام ابن القيم يحذِّر من استفزاز البُداءات

فقد ندد -رحمه الله تعالى- بمن تستخفه البُداءات وعوارضُ الشبهات، فقال فيمن هذا شأنه: «. . . هذا دليلُ ضعفِ عقله ومعرفتِه؛ إذ تؤثر فيه البُداءات، ويُستفز بأوائل الأمور، بخلاف الثابت التام العاقل، فإنه لا تستفزه البُداءات، ولا تزعجه وتقلقه، فإن الباطل له دهشةٌ وروعة في أوله، فإذا ثبت له القلبُ؛ رُدَّ على عقبيه، والله يحب مَن عنده العلم والأناة، فلا يعجل، بل يثبت حتى يعلم، ويستيقنَ ما ورد عليه، ولا يعجل بأمرٍ مِن قبلِ استحكامه، فالعجلة والطيش من الشيطان، فمن ثبت عند صدمة البُداءات؛ استقبل أمره بعلم وحَزْم، ومن لم يثبت لها؛ استقبله بعجلةٍ وطيش، وعاقِبتُه الندامةُ، وعاقبةُ الأولِ حَمْدُ أمرِه، ولكن للأول آفة متى قُرِنت بالحزم والعزم نجا منها؛ وهي: الفَوْتُ، فإنه لا يُخاف من التثبت إلا الفَوْتُ، فإذا اقترن به العزم والحزم؛ تم أمره، ولهذا في الدعاء الذي رواه الإمام أحمد والنسائي عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: **«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ في الأَمْرِ، والعَزِيْمَةَ عَلَى الرُّشْدِ»**[1].

---

(١) أخرجه من حديث شداد بن أوس -رضي الله عنه- الطبراني في «الكبير» (٧/ ٣٣٥، ٣٣٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٦٦)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٦/ ١٢٧)، وقال الألباني: «إسناده جيد، رجاله ثقات، وفي بعضهم خلاف لا يضر». اهـ. من «الصحيحة» رقم (٣٢٢٨)، وحسَّنه شعيب الأرناؤوط بطرقه كما في «الإحسان» (٥/ ٣١١، ٣١٢).

وهاتان الكلمتان هما جماع الفلاح، وما أُتي العبدُ إلا من تضييعهما أو تضييع أحدهما، فما أُتي أحد إلا من باب العجلة والطيش، واستفزاز البداءات له، أو من باب التهاون والتماوت، وتضييع الفرصة بعد مُواتَاتها[١]، فإذا حصل الثبات أولًا، والعزيمة ثانيًا أفلح كل الفلاح، والله ولي التوفيق»[٢]. اهـ.

والواقعة التالية تجسِّد لك سلوكَ الذي تستخفه بُداءاتُ الأمور، وتستفزه أوائلها، وسلوكَ الحليم الواثق الذي يصدر عن علم وبصيرة، وحزم وعزم:

فقد قال يُسَيْرُ بن جابر: «هاجت ريح حمراء بالكوفة، فجاء رجل ليس له هِجِّيرَى[٣] إلا: يا عبد الله بن مسعود جاءت الساعة، قال: فقعد، وكان متكئًا، فقال: إن الساعة لا تقوم حتى لا يُقْسَمَ ميراثٌ، ولا يُفْرَحَ بغنيمة، ثم قال بيده هكذا (ونحاها نحو الشام) فقال: عدوٌ يجمعون لأهل الإسلام، ويجمع لهم أهلُ الإسلام» الحديث[٤]

---

(١) وفي هذا يقول الأعشى:

وربما فات قومًا جُلُّ أمرهمُ من التأني، وكان الحزمُ لو عجلوا

(٢) «مفتاح دار السعادة»، ص(١٦٩، ١٧٠)، ط. دار الحديث، القاهرة ١٤١٤هـ.

(٣) له «هِجِّيرَى»: أي شأنه ودأبه ذلك.

(٤) رواه مسلم، رقم (٢٨٩٩).

من مواقف التثبت في الفتن

- عن عمر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه -رضي الله عنه-، أنه جاءه ابنه عامر، فقال: أي بُنَيَّ! أفي الفتنة تأمرني أن أكون رأسًا؟ لا والله، حتى أُعْطى سيفًا، إنْ ضربتُ به مسلمًا، نبا عنه، وإن ضربت كافرًا، قتله، سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: «**إن الله يحب الغني الخفي التقي**»[(١)].

- وعن محمد قال: نُبِّئْتُ أن سعدًا -رضي الله عنه- قال: «ما أزعم أني بقميصي هذا أحقُّ مني بالخلافة، جاهدتُ وأنا أَعْرَفُ بالجهاد، ولا أبخَعُ نفسي إن كان رجلًا خيرًا مني، لا أقاتل حتى يأتوني بسيفٍ له عينان ولسانٌ، فيقول: هذا مؤمن، وهذا كافر»[(٢)].

- وعن عامرٍ الشعبيِّ قال: لما قاتلَ مروانُ الضحاكَ بنَ قيس أرسلَ إلى أيمن بن خُريم الأسدي، فقال: «إنَّا نحبُ أن تقاتلَ معنا» فقال: «إن أبي وعَمِّي شَهِدا بدرًا، فعهِدا إليَّ أنْ لا أقاتلَ أحدًا يشهدُ أنْ لا إله إلا الله، فإن جئتني ببراءةٍ من النَّار قاتلتُ مَعَكَ!» فقال: «اذهب»، ووَقَعَ فيه، وسَبَّهُ، فأنشأ أيمن يقول:

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ١٧٧)، ومسلم (٢٩٦٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٩٤).

(٢) أخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ١٠١)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٩٤)، والطبراني في «الكبير» (٣٢٢)، وقال الهيثمي: «رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح». اهـ. من «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٩٩)، وبخع نفسَه: قتلها غيظًا أو غمًّا.

ولستُ مقاتلًا رجلًا يصلي عَلَى سلطانِ آخرَ مِنْ قريشِ
له سلطانه وعليَّ إثمي معاذ الله مِن جهل وطيشِ
أأقاتل مسلمًا في غير شيء؟ فليس بنافعي ما عشتُ عيشي[١]

- قال حميدُ بن هلال: أتى مُطَرِّفَ بنَ عبدِ الله زمانَ ابنِ الأشعثِ ناسٌ يدعونه إلى قتال الحجاج، فلمَّا أكثروا عليه، قال: «أرأيتم هذا الذي تدعونني إليه: هل يزيد على أن يكون جهادًا في سبيل الله؟» قالوا: لا، قال: «فإني لا أخاطر بين هلكةٍ أقع فيها، وبين فضلٍ أصيبه»[٢].

- وقال حميد بن هلال -أيضًا-: أتى مُطَرِّفَ بنَ عبدِ الله الحروريةُ يدعونه إلى رأيهم، فقال: «يا هؤلاء، إنه لو كان لي نفسان بايعتكم بإحداهما، وأمسكت الأخرى، فإن كان الذي تقولون هدًى أتبعتُها الأخرى، وإن كان ضلالةً هلكت نفسٌ، وبقيتْ لي نفسٌ، ولكن هي نفسٌ واحدةٌ، فلا أغرر بها»[٣].

- وقال مُطَرِّف بن عبد الله -رضي الله عنه- أيضًا: «لأن آخذ بالثقة في القعود أحبُّ إليَّ من أن ألتمس -أو قال: أطلب- فضل الجهاد بالتغرير»[٤].

---

(١) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٢/ ٢٤٥)، والطبراني في «الكبير» (١/ ٢٩٠) رقم (٨٥١)، والبيهقي في «السنن» (٨/١٩٣).

(٢) «الطبقات الكبرى» (٧/ ١٤٣)، «تاريخ مدينة دمشق» (٥٨/ ٣١٥).

(٣) «مصنف ابن أبي شيبة» (٧/ ١٧٨)، «حلية الأولياء» (٢/ ١٩٩)، «تاريخ مدينة دمشق» (٥٨/ ٣١٥)، وفي «لسان العرب» (٥/ ١٤): «وفي حديث مُطَرِّف: إن لي نفسًا واحدة وإني أكره أن أغرر بها؛ أي: أحملها على غير ثقة»، وانظر: «النهاية في غريب الأثر» (٣/ ٣٥٦).

(٤) «مصنف ابن أبي شيبة» (٧/ ١٧٨).

وقال أيضًا -رحمه الله تعالى-: «إن الفتنة ليست تأتي تهدي الناس، ولكن إنما تأتي تقارع المؤمنَ عن دينه؛ ولأن يقول الله: «لم لا قتلتَ فلانًا؟» أحبُّ إليَّ من أن يقول: «لم قتلتَ فلانًا؟»[١].

وعن عُقبةَ بن إسحاق قال: كان منصور بن المعتمر يأتي زُبيد بن الحارث، فكان يذكُر له أهل البيت، ويَعْصِرُ عينيه، يريده على الخروج أيام زيد بن علي، فقال زبيدٌ: «ما أنا بخارج إلا مع نبيٍّ، وما أنا بواجده»[٢].

(١) «حلية الأولياء» (٢/ ٢٠٤).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٢٩٧).

obeikandl.com

العَجلَة أمُّ الندامات

قال قتادة بن دعامة -رحمه الله تعالى-: «قد رأينا والله أقوامًا يُسرعون إلى الفتن، وينزعون فيها، وأمسك أقوام عن ذلك هيبةً لله، ومخافة منه، فلما انكشفت، إذا الذين أمسكوا أطيب نفسًا، وأثلج صدورًا، وأخف ظهورًا من الذين أسرعوا إليها، وينزعون فيها، وصارت أعمال أولئك حزازاتٍ على قلوبهم كلما ذكروها، وَايمُ اللهِ! لو أن الناس يعرفون من الفتنة إذا أقبلت كما يعرفون منها إذا أدبرت، لعقل فيها جيل من الناس كثير»[(١)].

وقال محمد بن طلحة: رآني زُبيد مع العلاء بن عبد الكريم، ونحن نضحك، فقال: «لو شهدتَ الجماجم[(٢)] ما ضحِكتَ، ولوددتُ أنَّ يدي -أو قال: يميني- قُطِعت من العضُد وأني لم أكن شهدتُ»[(٣)].

وعن إسماعيل بن أبي خالد قال مرة: «شهدت فتح القادسية، في ثلاثة آلاف من قومي؛ فما منهم من أحد: إلا خف في الفتنة غيري، وما منهم أحد: إلا غبطني»[(٤)].

---

(١) «حلية الأولياء» (٢/ ٣٣٧).

(٢) انظر خبر فتنة ابن الأشعث، ووقعة «دير الجماجم» في «البداية والنهاية» (٩/ ٣٥-٣٧)، (٩/ ٤٠-٤٣)، (١٢/ ٣٤٧-٣٥٥)، و«سير أعلام النبلاء» (٢/ ٤٣).

(٣) انظر: «سؤالات أبي عبيد الآجري» رقم (٩٦)، و«المعرفة والتاريخ» (٣/ ١٠٩)، و«تاريخ مدينة دمشق» (١٩/ ٤٧٣).

(٤) «حلية الأولياء» (٤/ ١٦٣).

وقال الشعبي -لما أُدخل على الحجاج، وكان قد شارك في الفتنة-: «قد اكتحلنا بعدك السهرَ، وتَحَلَّسْنا الخوفَ، وخبطتنا فتنة لم نكن فيها برزة أتقياء، ولا فجرة أقوياء»[١].

ولما أُتي بفيروز بن الحصين إلى الحجاج، قال له: «أبا عثمان! ما أخرجك مع هؤلاء؟ فقال: أيها الأمير! فتنة عَمَّت، فأمر به الحجاج، فضُرِبت عنقه»[٢].

وقال حماد بن زيد: ذكر أيوبُ السختياني القراء الذين خرجوا مع ابن الأشعث، فقال: «لا أعلم أحدًا منهم قُتِل إلا قد رُغِب عن مصرعه، ولا نجا أحد منهم إلا حَمِد الله الذي سلَّمه، ونَدِم على ما كان منه»[٣].

وقال مالكُ بنُ دينار: لقيتُ معبدًا الجهني بمكة بعد ابن الأشعث وهو جريح، وقد قاتل الحجاج في المواطن كلها، فقال: «لقيتُ الفقهاءَ والناسَ، لم أرَ مثل الحسن، يا ليتنا أطعناه»، كأنه نادم على قتال الحجاج[٤].

وعن أبي قِلابة قال: لما انجلت فتنة ابن الأشعث، كنا في مجلس، ومعنا مسلم بن يسار، فقال مسلم: «الحمد لله الذي أنجاني من هذه الفتنة، فوالله ما رميتُ فيها بسهم، ولا طعنتُ فيها برمحٍ، ولا ضربتُ

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٣٠٦).

(٢) «وفيات الأعيان» (٢/ ٣٨).

(٣) «الطبقات الكبرى» (٧/ ١٨٧)، و«المعرفة والتاريخ» للفسوي (٢/ ٥٢).

(٤) «تاريخ مدينة دمشق» (٥٩/ ٣٢٥).

فيها بسيف»[١]، قال أبو قلابة: فقلت له: «فما ظنك يا مسلم بجاهلٍ نظر إليك، فقال: والله ما قام مسلم بن يسار سيدُ القراء هذا المقامَ إلا وهو يراه عليه حقًّا، فقاتل حتى قُتِل؟!»، قال: «فبكى والذي نفسي بيده، حتى تمنيت أني لم أكن قلتُ شيئًا»[٢].

وعن عبد الله بن عون قال: «كان مسلم بن يسار لا يُفَضَّلُ عليه أحدٌ في ذلك الزمان حتى فعل تلك الفَعْلَة، فلقيه أبو قِلابة فقال: والله لا أعود أبدًا، فقال أبو قلابة: إن شاء الله، فتلا أبو قلابة ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، فأرسلَ مسلم عينيه»[٣].

---

(١) مع أنه وُجِدَ بين الصفين، قال أيوب السختياني: قيل لابن الأشعث: «إن أردتَ أن يُقتلوا حولك كما قُتِلوا يوم الجمل حول جمل عائشة -رضي الله عنها- فأخرِج معك مسلمَ بنَ يسار، فأخرجه مُكرهًا». اهـ. من «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٨٦)، ولذلك رَدَّ عليه أبو قلابة في رواية ابن عساكر (١٦/ ٢٤٨): «فكيف بمن رآك بين الصفين، فقال: هذا مسلم بن يسار لن يقاتل إلا على حق، فقاتل حتى قُتل؟». اهـ.
وفي «التاريخ الكبير» فقال أبو قلابة: «أبا عبد الله! لعل فئامًا من الناس رأوك واقفًا، فقالوا: هذا مسلم بن يسار، فقتلوا في سببك؟» (٢/ ٣٠٢) رقم (٢٥٤٤).

(٢) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ٣٠٢)، رقم (٢٥٤٤)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٨/ ١٤٦).

(٣) «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٥١).

ومن أسباب النجاة من الفتن:

التثبت من الأخبار

إن التثبت من الأخبار قبل تصديقها، فضلًا عن إذاعتها، منهج قرآني أصيل، يُستراحُ به من القال والقيل، ويوفر من طاقة الأمة المهدرة في الفتن ما يفيد في البناء.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾ [الحجرات: ٦]، وقال -عزَّ وجل-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٗا ۝٩٤﴾ [النساء: ٩٤]

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن رجلًا من بني سليم مرَّ على نفرٍ من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ومعه غنم له، فسلَّم عليهم، فقالوا: «**ما سلَّم عليكم إلَّا ليتعوذ منكم**»، فقاموا إليه، وقتلوه، وأخذوا غنمه، فأتوا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله هذه الآية[1]

«والفتن إنما تظهر بالإشاعات والبواطيل، وتنتشر بالقال والقيل، مع خفة عقلٍ في نَقَلَتِها، ورِقَّةِ دين، تمنعهم من امتثال أمر الله تعالى بالتثبت وترك الاستعجال.

---

(١) رواه البخاري مختصرًا (٤٥٩١)، والترمذي (٣٠٣٠)، وحسَّنه، والحاكم (٢/ ٢٣٥)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

ولتجدنَّ أشدَّ الناس حِدَّة في الطبع، وإعجابًا بالنفس، وتعصبًا للرأي؛ هم أولئك الذين لا يتثبتون ولا يتبيَّنون، فيغلب عليهم الصَّلَف والكِبْر، وعدمُ مراعاة الناس، والجميع عندهم جَهلة لا يعلمون، وهم العارفون العالمون.

إن حملَ المسلمين على العدالة هو الأصل الذي لا ينبغي العدول عنه إلَّا بمثله من اليقين، أما بمجرد قُوْلٍ قيل لا يُدرى من أي رأس خرج ولا على أي أرض درج؛ فجريمة يُسأل صاحبها عنها، مفضية إلى الندامة في الدنيا قبل الآخرة.

وعليه؛ فإن من أعظم ما تُدفع به الفتن: التثبت والتبيُّن في الأخبار، لا سيما إذا كان الخبر متعلقًا بعموم الأمة، أو برأس من رءوسها، وليعلم أن مجرد الثقة في الناقل لا تكفي بمفردها؛ وذلك لما يعتري النفوسَ من الهوى والشهوة ونفث الشيطان.

ثم لو فرض صحة الخبر يقينًا، فإنه يبقى بعد ذلك النظر في مصلحة نشره من عدمها، فإنه ليس كل ما يعلم يقال، وإن من الأخبار ما لا يُلقى إلَّا إلى الخاصة الذين يُصلحون في الأرض ولا يفسدون.

وليعلم -أيضًا- أن هتكَ الأستار، ليس من الإصلاح في شيء؛ إذ إن الله تعالى أمر بالستر والنصح، وأَمْرُه سبحانه هو الصلاح والإصلاح بعينه، فما خالفه فليس من الإصلاح في شيء كما قلنا.

إن المنهج الحق: هو التناصح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع شفقة على المنصوح وحزن عليه يقتضي تمام السعي في

إصلاحه وإن كان جبارًا عنيدًا، وقد جعل النبي -صلى الله عليه وسلم- المقتول بسبب كلمة الحق من أعظم الشهداء عند الله، لكنه لم يجعل لهاتك الأستار إلَّا الفضيحة في الدنيا؛ إذ يوشك الله تعالى أن يفضحه ولو في جوف داره[١]، أعاذنا الله وإخواننا المسلمين من سوء الحال والمآل». اهـ[٢].

رُوي عن عمر بن عبد العزيز -رحمه الله تعالى- أنه دخل عليه رجل فذكر له عن رجلٍ شيئًا، فقال له عمر: «إن شئت نظرنا في أمرك: فإن كنتَ كاذبًا، فأنت من أهل هذه الآية: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ﴾ [الحجرات: ٦]، وإن كنت صادقًا، فأنت من أهل هذه الآية: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [القلم: ١١]، وإن شئت عفونا عنك؟»، فقال: «العفو يا أمير المؤمنين، لا أعود إليه أبدًا»[٣].

إن اتقاء الغَواية في الرواية، والتحريَ والتثبت من الأخبار التي تتداولها الألسن وقت الفتن والحروب أَوْكَد من غيره من الأوقات؛ لأنها سلاح فتَّاك قد يضر أكثر مما تضر الأسلحة.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾ [النساء: ٨٣]. قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- في تفسيرها: «**وقوله:**

---

(١) يشير إلى ما رواه أبو برزة الأسلمي والبراء بن عازب -رضي الله عنهما- قالا: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمانُ قلبه! لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم، تتبع الله عورته، ومَنْ تتبع الله عورته، يفضحْهُ ولو في جوف بيته». وقال الهيثمي في «المجمع»: «رجاله ثقات» (٨/ ٩٣)، وحسَّنه المنذري في «الترغيب» (٣/ ٢٤٠).

(٢) «مسائل في الفتن» للصبحان ص(٦٧-٦٨).

(٣) «الإحياء» (٣/ ١٥٦).

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾ إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها، فيخبر بها ويفشيها، وقد لا يكون لها صحة. وقد قال مسلم في مقدمة «صحيحه». . . عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، قال: «**كفى بالمرء كذبًا أن يحدِّث بكل ما سمع**»[(١)].

وفي الصحيحين عن المغيرة بن شعبة: أن رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- «نهى عن قيل وقال. . .»[(٢)]. أي: الذي يُكثر من الحديث عما يقول الناس من غير تثبت ولا تدبر ولا تبين، وفي الصحيح: «**مَنْ حدَّث عني بحديثٍ يُرى أنه كذب؛ فهو أحد الكاذِبين**»[(٣)].

ولنذكر ها هنا حديث عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- المتفق على صحته حين بلغه أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- طلَّق نساءه، فجاء من منزله حتى دخل المسجد، فوجد الناس يقولون ذلك، فلم يصبر حتى استأذن على النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فاستفهمه: أطلَّقتَ نساءك؟ فقال: «لا»، فقلت: الله أكبر. . . وذكر الحديث بطوله.

وعند مسلم: فقلت: أطلقتهنَّ؟ فقال: «لا»، فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يُطَلِّق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نساءه، ونزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ

---

(١) رواه مسلم في «المقدمة» (١/ ١٠) رقم (٥).

(٢) رواه مسلم (٣/ ١٣٤١).

(٣) رواه مسلم في «المقدمة» (١/ ٩) عن سمرة بن جندب -رضي الله عنه-.

﴿مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، فكنت أنا استنبط ذلك الأمر[١]. ومعنى يستنبطونه؛ أي: يستخرجونه من معادنه؛ يُقال استنبط الرجلُ العينَ، إذا حفرها واستخرجها من قعورها...»[٢] اهـ.

ثم قال تعالى في عَجُزِ الآية: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ أيها المؤمنون ﴿لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ في قَبول تلك الإشاعات المغرضة والإذاعات المُثَبِّطَة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منكم من ذوي الآراء الصائبة والحصافة العقلية؛ إذ مثلهم لا تُثيرهم الدعاوى، ولا تغيرهم الأراجيف، ككبار الصحابة من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم أجمعين[٣].

قال صاحب «الظلال» -عفا الله عنه-:

«والصورة التي يرسمها هذا النص، هي صورة جماعة في المعسكر الإسلامي، لم تألف نفوسهم النظام، ولم يدركوا قيمة الإشاعة في خلخلة المعسكر، وفي النتائج التي تترتب عليها، وقد تكون قاصمة؛ لأنهم لم يرتفعوا إلى مستوى الأحداث؛ ولم يدركوا جدية الموقف، وأن كلمة عابرة وفلتة لسان، قد تجرُّ من العواقب على الشخص ذاته، وعلى جماعته كلها ما لا يخطِرُ له ببال، وما لا يُتدارك بعد وقوعه بحال! أو -ربما- لأنهم لا يشعرون بالولاء الحقيقي الكامل لهذا المعسكر، وهكذا لا يعنيهم ما يقع له من جرَّاء أخذ كل شائعة والجري بها هنا وهناك، وإذاعتها حين يتلقاها لسان عن لسان، سواء كانت إشاعة أمن أو إشاعة خوف... فكلتاهما قد

---

(١) رواه مسلم (٢/ ١١٠٥-١١٠٨) رقم (١٤٧٩).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٥٢٩، ٥٣٠).

(٣) «أيسر التفاسير» (١/ ٤٣٣).

يكون لإشاعتها خطورة مدمِّرة! فإن إشاعة أمر الأمن مثلًا في معسكر متأهب مستيقظ متوقع لحركة من العدو.. إشاعة أمر الأمن في مثل هذا المعسكر تُحدِثُ نوعًا من التراخي، مهما تكن الأوامر باليقَظة؛ لأن اليقَظة النابعة من التحفز للخطر غير اليقَظة النابعة من مجرد الأوامر، وفي ذلك التراخي قد تكون القاضية!

كذلك إشاعة أمر الخوف في معسكر مطمئن لقوته، ثابت الأقدام بسبب هذه الطمأنينة، وقد تُحدث إشاعة أمر الخوف فيه خلخلة وارتباكًا، وحركات لا ضرورة لها لاتقاء مظان الخوف.. وقد تكون كذلك القاضية!

وعلى أية حال؛ فهي سمة المعسكر الذي لم يكتمل نظامه، أو لم يكتمل ولاؤه لقيادته، أو هما معًا... ويبدو أن هذه السمة وتلك كانتا واقعتين في المجتمع المسلم حينذاك باحتوائه على طوائف مختلفة المستويات في الإيمان، ومختلفة المستويات في الإدراك، ومختلفة المستويات في الولاء... وهذه الخلخلة هي التي كان يعالجها القرآن بمنهجه الرَّباني.

والقرآن يدل الجماعة المسلمة على الطريق الصحيح: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، أي: لو أنهم ردُّوا ما يبلغهم من أنباء الأمن أو الخوف إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم- إن كان معهم، أو إلى أمرائهم المؤمنين، لَعَلِمَ حقيقته القادرون على استنباط هذه الحقيقة واستخراجها من ثنايا الأنباء المتناقضة، والملابسات المتراكمة.

فمهمة الجندي الطيب في الجيش المسلم، الذي يقوده أمير مؤمن -بشرط الإيمان ذاك وحده- حين يبلغ إلى أذنيه خبر، أن يسارع فيُخبر به نبيه أو أميره، لا أن ينقله أو يذيعه بين زملائه؛ أو بين من لا شأن له به؛ لأن قيادته المؤمنة هي التي تملك استنباط الحقيقة، كما تملك تقدير المصلحة في إذاعة الخبر -حتى بعد ثبوته- أو عدم إذاعته...»[١].

ليس كل ما يُعلم يُقال:

قال أمير المؤمنين عليٌّ -رضي الله عنه-: «حَدِّثوا الناسَ بما يعرفون، أتحبون أن يُكَذَّبَ اللهُ ورسولهُ؟!»[٢].

وعن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: «ما أنت بمحدِّثٍ قومًا حديثًا لا تبلغُه عقولُهم، إلَّا كان لبعضهم فتنة»[٣].

وقد ترجم البخاري -رحمه الله تعالى- في كتاب العلم: «باب: من خصَّ بالعلم قومًا دون قوم كراهية ألا يفهموا»[٤]، «باب: من ترك بعض الاختيار مخافة أن يَقْصُر فهمُ بعض الناس عنه، فيقعوا في أشدَّ منه»[٥].

قال حماد بنُ زيد: سئل أيوبُ السَّخْتِياني عن مسألةٍ، فسكت، فقالَ الرجلُ: يا أبا بكر لم تفهم، أعيدُ عليكَ؟ قال: فقال أيوب: «قد فهمتُ، ولكني أفكرُ كيف أجيبك»[٦]

---

(١) «في ظلال القرآن» (٢/ ٧٢٣، ٧٢٤).
(٢) أخرجه البخاري(١/ ٢٢٥- فتح) رقم (١٢٧).
(٣) أخرجه مسلم في «المقدمة» (١/ ٧٦- نووي).
(٤) «فتح الباري» (١/ ٢٢٥).
(٥) نفسه (١/ ٢٢٤).
(٦) «المعرفة والتاريخ» (٢/١٣٨).

obeikandl.com

. ورَوَى الحَاكِمُ في تَارِيخِهِ بِإِسْنَادِهِ عَنْ أَبي قُدَامَةَ عَن النَّضْرِ بْنِ شُمَيْلٍ قَالَ: سُئِلَ الخَلِيلُ عَنْ مَسأَلَةٍ فَأَبْطَأَ بالْجَوَابِ فِيهَا، قَالَ: فَقُلْتُ: مَا فِي هَذِه الْمَسْأَلَةِ كُلُّ هَذَا النَّظَر، قَالَ: «فَرَغْتُ مِن الْمَسْأَلَةِ وَجَوَابِهَا، وَلَكِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُجيبَك جَوَابًا يَكُونُ أَسْرَعَ إِلَى فَهْمِكَ»، قَالَ أَبُو قُدَامَةَ: فَحَدَّثْتُ بِهِ أَبَا عُبَيْدٍ فَسُرَّ به[١].

ومن هذا الباب قولُ أبي هريرة -رضي الله عنه-: «حفظت من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعاءين: فأمَّا أحدهما فبثثتُهُ، وأما الآخر فلو بثثتُه قُطع هذا البُلْعُوم»[٢].

والبُلْعُوم: -بضم الموحدة- مجرى الطعام، وقد كنَّى بذلك عن القتل. وفي رواية: «لَقُطِعَ هذا» يعني: رأسه. وحمل العلماء الوعاء الذي لم يبثَّه على الأحاديث التي فيها تبيين أسامي أمراء السوء وأحوالهم وزمنهم، وقد كان أبو هريرة يَكْنِي عن بعضه، ولا يُصرِّح به خوفًا على نفسه منهم؛ كقوله: «أعوذ بالله من رأس الستين وإمارة الصبيان»، يُشير إلى خلافة يزيد بن معاوية؛ لأنها كانت سنة ستين من الهجرة، وكان يقول -رضي الله عنه-: «اللهمَّ لا تدركني سنة ستين، ولا إمارة الصبيان»[٣]، واستجاب الله دعاء أبي هريرة فمات قبلها بسنة[٤].

---

(١) «الآداب الشرعية» (٣/١٥٦).

(٢) رواه البخاري رقم (١٢٠) (١/ ٢٦١- فتح).

(٣) لأن يزيد كان غالبًا ينتزع الشيوخ من إمارة البلدان الكبار، ويُوَلِّيها الأصاغر من أقاربه. انظر: «الفتح» (١٣/ ١٢، ١٣).

(٤) «فتح الباري» (١/ ٢٦١).

فأبو هريرة -رضي الله عنه- كتم الأحاديث التي فيها الفتن، والأحاديث التي في بني أمية، ونحو ذلك من الأحاديث، ككتمه لأسماء الأُغَيْلمة السُّفهاء الذين يكون هلاك الأمة على أيديهم؛ فقد قال -رضي الله عنه- سمعت الصادق المصدوق يقول: «**هلكةُ أُمتي على يدَي غِلْمَةٍ من قريش**»... ثم قال أبو هريرة: «**لو شئت أن أقول بني فلان، بني فلان لفعلت**»[(١)]. وفي رواية: «**إن شئت أن أُسَمِّيَهُمْ، وبني فلان، وبني فلان**»[(٢)].

«فأبو هريرة -رضي الله عنه- كتم الوعاء الآخر الذي حفظه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يبثه، بل حفظ لسانه وكفه من إشاعته؛ درءًا للمفسدة وخشية الفتنة، علمًا بأنه قال هذا الكلام في زمن معاوية رضي الله عنه، ومعاوية قد اجتمع الناس عليه بعد فرقة وقتال، معلوم في التاريخ ما حصل فيه، فأبو هريرة كتم الوعاء الآخر، ولم يبثه في ذلك الزمن، وكتم -أيضًا- بعض الأحاديث الأخرى التي ليست من الأحكام الشرعية؛ كل ذلك لأجل ألَّا تكون فتنة بين الناس، فهو -رضي الله عنه- لم يقل: إن رواية الحديث وقوله حق، ولا يجوز كتمان العلم، لم يقل ذلك؛ لأن كتم العلم في مثل ذلك الوقت -وقت الفتن- الذي تكلم فيه أبو هريرة لا بُدَّ منه؛ جلبًا للمصلحة ودرءًا للمفسدة، لكيلا يتفرق الناس شذَر مذَر بعد أن اجتمعوا في عام الجماعة على معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه. وصنيع أبي هريرة هذا يدل على حكمته وحصافته وفطنته رضي الله عنه؛ حيث حفظ لسانه زمن الفتنة بُغية اجتماع الأمة وعدم افتراقها»[(٣)].

---

(١) رواه البخاري (١٣/ ١١) رقم (٧٠٥٨)، ومسلم (٤/ ٢٢٣٦) رقم (٢٩١٧).

(٢) رواه البخاري (٦/ ٧٠٨) رقم (٣٦٠٥).

(٣) «موقف المسلم من الفتن» للحازمي ص(٤٢٨، ٤٢٩).